

تأثير ابن أبي ربيعة

في شعراء اللغة العربية



عرف القارىء كيف أثر عمر بن أبي ربيعة في شعراء عصره ،
 كيف حملهم على الاعتراف بتفوقه عليهم في مذاهب النسيب
 فمن الخير أن نعرف كيف أثر فيمن خلفه من الشعراء
 وانما عيننا من خلف من بعده لأنه غلب على شعراء عصره ،
 ضاف إليه الرواة أثر القصائد التي وُسِّمَتْ بميسمه ، وطُبِّعَتْ
 بطابعه ، في حوار الملاح .

وكان طبيعياً أن نحاول معرفة من تأثر به ابن أبي ربيعة من
 القدماء ، وإن كنا قد ألمعنا إلى ذلك في المحاضرة الثالثة ، فلنذكر الآن
 أنه تأثر بامرئ القيس : فجراه في الحديث عن حوادث الليل ،
 ومدافعة الأحراس ، ومطاوعة الصبا والحب في هصر أعواد الحسان

وفى الحق أن أكثر ما مرَّ من شعر ابن أبي ربيعة يذكرنا
فى الغرض والأسلوب بقول امرئ القيس :

وبيضة خدرٍ لا يُرام خباؤها تمتعت من لهُوبها غير مُعجل^(١)
تجاوزت أحراساً إليها ومُشرّاً على حراساً لو يُسرُّون مقلّي^(٢)
إذا ما الثريا فى السماء تعرضت تعرض أئناء الوشاح المفصل^(٣)
فجئت وقد نضت لنوم ثيابها لدى السَّترِ إلا لبسة المتفضل^(٤)
فقلت يمين الله مالك حيلة^٥ وما إن أرى عنك الغواية تنجلي^(٥)
خرجت بها أمشى تجرُّ وراءنا على أثرينا ذيل مرطٍ مرحل^(٦)
فلما أجزنا ساحة الحى واتحت بثابطن خبت ذى حقاف عثقل^(٧)

(١) بيضة الخدر كناية عن العقيلة المخدرة المحجبة - غير معجل: غير مضطر الى العجلة

(٢) الاحراس والحراس معناها واحد - حراس: جمع حريض - يسرون مقلته:

يضمرونه (٣) الوشاح: أديم عريض يرصع بالجوهر تشده المرأة بين عاتقها وكشحتها

- والمفصل: هو المرصع بالذهب أو الزبرجد (٤) نضت ثيابها: تزعتها - والمتفضل هو

الذى يلبس ثوبا واحدا حين يأوى الى فراشه (٥) مالك حيلة: هي كلمة نسائية يراد بها

الدعابة لا التحقير (٦) المرط: كساء من صوف أو خز - المرحل: الذى فيه صور

وحال، كالمشجر وهو الذى يحمل صور الاشجار (٧) جزت المكان: وأجزته وجاوزته

وتجاوزته: قطعته وخلفته - اتحت: قصدت - الحبث: الفضاء الواسع - الحقاف

والاحقاف جمع حقف وهو ثقيل يعوج ويدق - العثقل: الوادى العظيم والكثيب المراكم

هصرت بفودى رأسها فما يلت
 مهفهفة^(١) بيضاء غير مفاضة
 كبكر المقناة البياض بصفرة^(٢)
 تصد وتبدى عن أسيل وتتنى
 وجيد كجيد الريم ليس بفاحش
 وفرع يزين المتن أسود فاحم^(٣)
 على هضم الكشح رياء المخال^(٤)
 ترائبها مصقولة كالسجنل^(٥)
 غذاها نيمر الماء غير المحلل^(٦)
 بناظرة من وحش وجرة مطفل^(٧)
 إذا هي نصته ولا بمعطل^(٨)
 أثيث كقنم النخلة المتشكل^(٩)

(١) هصرت فوديا وبفوديا : أملت إلى - والفودان : جانب الرأس - هضم الكشح :
 دقيقة الحصر - رياء المخال : بضة الساق - والمخال : موضع الخال (٢) مهفهفة :
 ضامرة البطن - غير مفاضة : غير مسترخية اللحم ، واسترخاء اللحم من عيوب النساء -
 الترائب موضع القلادة من الصدر - السجنل : المرأة المجلوة (٣) المقناة : الخلط .
 تقول : قوتى بياضها بصفرة ، أى خلط . والشاعر يشبه خليلته ببضة النعام لأول
 ما بمنزج الصفرة بالبياض - نيمر الماء : صافيه - المحلل : الذى كدرته الابل
 يت يذكرنا بابن أبى ربيعة اذ يصف معشوقاته كثيرا بالتلف ولين العيش
 أسيل : رقيق ، صفة لموصوف محذوف هو الحذ - وجرة : مرب للوحش
 بن مكة والبصرة . قال بعض الاعراب :

وفي الحيرة الغادين من بطن وجرة غزال أحمر المقلتين ريب
 فلا تحسبى أن الغريب الذى نأى ولكن من تنأى عنه غريب
 ومطفل : ذات طفل : يريد أن نظرتها فيها عطف وحنان (٥) الجيد : العنق
 الريم : الظبي - نصته : رفعته - ومعطل وعاطل : لا حلية فيه (٦) الفرع : الشعر
 المتن : الظهر - فاحم : شديد السواد - أثيث : غزير - متشكل : ذو عثاكيل -
 وهي في النخيل كالعناقيد فى الاعناب

غداثره مستشزرات إلى العلى تفضل المدارى فى مثنى ومرسل^(١)
وكشح لطيف كالجديل مخصر وساق كأنبوب السقى المذل^(٢)
وتضحى فتيت المسك فوق فراشها

نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل^(٣)
وتعطو برخص غير شئن كأنه أساريع ظبي أو مساويك إسحل^(٤)
تضىء الظلام بالعشاء كأنها منارة ممشى راهب مبتل
إلى مثلها يرنو الحليم صبابة

إذا ما اسبكرت بين درع ومجول^(٥)
تسات عمايات الرجال عن الصبا وليس فؤادى عن هواها بمنسل^(٦)

(١) الغداثر : خصل الشعر — مستشزرات : مرتفعات — المدارى : الامشاط
(٢) الجديل : الوشاح — مخصر : دقيق — السقى على وزن غنى نيات يسقى كثيراً
ويسمى البردى — المذل : الين (٣) لم تنتطق : لم تلبس المنطق أو النطق ،
وهو شقة تلبسها المرأة وتشد وسطها فتزسل الاعلى على الاسفل وينجر الاسفل على
الارض — والتفضل : لبس الثوب الواحد — وعن ، هنا ، بمعنى بعد — أى لم تلبس
انطق بعد المفضل . يريد أنها أصيلة الترفل تكس بعد عرى (٤) تعطو : تتناول —
رخص : لين ناعم — شئن : خشن — أساريع : جمع أسروع وهو دود أبيض أحمر
الرأس تشبه به الانامل المخضبة الاطراف — وظي : اسم واد — والاسحل : شجر
يستاك به (٥) اسكرت : طابت واعتدلت — والدرع القميص — والمجول على وزن
منبر ثوب تلبسه الفتاة وتجول فيه قبل أن تخدر (٦) منسل : سبال

ألا رُبَّ خصم فيك أَلْوَى رَدَدَتُهُ

نصيح على تعذاله غير مؤثِّل^(١)

فملى هذا المنهج جرى ابن أبي ربيعة في محاكاة امرئ القيس ، ولكن أستاذنا الدكتور طه حسين يعكس القضية : فيقرر أن امرأ القيس هو الذى حاكى ابن أبي ربيعة ، إذ يفترض أن شعر امرئ القيس منجول ، وضعه شاعر إسلامي تأثر بعمر ابن أبي ربيعة فحاكاه ، وأجاد المحاكاة والتقليد . وعنده أن هذا النحو من القصص الغرامى فى الشعر هو فن عمر بن أبي ربيعة قد احتكره احتكاراً ، ولم ينازعه فيه أحد ، وأن من الغريب أن يسبق امرؤ القيس إلى هذا الفن ، ويتخذ فيه هذا الأسلوب ، ويُعرف عنه هذا النحو ، ثم يأتي أبي ربيعة فيقلده فيه ولا يشير أحد من النقاد إلى أن ابن أبي ربيعة - بامرئ القيس ، مع أنهم قد أشاروا إلى تأثير امرئ القيس - سفة من الشعراء فى أنحاء الوصف ، وأنه يبعد أن يكون امرؤ القيس هو منشىء هذا الفن من الغزل الذى عاش عليه ابن أبي ربيعة والذى كوّن شخصية ابن أبي ربيعة الشعرية ولا يُعرف له ذلك^(٢)

(١) خصم ألوى : عسر يلتوى على خصمه — غير مؤثِّل : غير مقصّر

(٢) راجع ص ٢٢٢ من الادب الجاهلي

وقد يُلاحظ أن ابن أبي ربيعة أذاع في شعراء عصره فكرة
تقارض المودة بين المحبين ، وأظهر ما يكون ذلك في شعر العرجي^(١)
إذ يقول :

وما أنسَ مَلَأْشياءَ لا أنسَ موقفا	لنا ولها بالسفح دون ثبير ^(٢)
ولا قولها وهنًا وقد بلَّ جيبها	سوابق دمع لا يحفُّ غزير ^(٣)
أأنت الذي خبرت أنك باكر ^(٤)	غداة غد أو راح بهجير ^(٤)
فقلت يسير ^(٤) بعض شهر أغيبه ^(٤)	وما بعض يوم غيبته يسير
أحين عصيت العاذلين إليكم ^(٤)	ونازعت حبل في هوال ^(٤) أميري
وباعدني فيك الأقارب كلهم	وباح بما يخفى اللسان ضميري
وقلت لها قول امرئ شفه الهوى	ليها ولو طال الزمان فقير
فما أنا إن شطت بك الدار أو نأت ^(٤)	بي الدار عنكم فاعلمي بصبور

(١) العرجي هو عبد الله بن عثمان بن عمرو بن عثمان بن غسان وكان ينزل بعرج
الطائف فنسب إليه (٢) ثبير : من جبال مكة (٣) الوهن : نحو من نصف الليل
أو بعد ساعة منه (٤) يرى أستاذنا الدكتور طه حسين أنه لا يصح أن تقول : أنت
الذي فعلت هذا ، وإنما تقول : أنت الذي فعل هذا ، فإن القرآن يقول : يا أيها الذين
آمنوا ، ولا يقول يا أيها الذين آمنتم . ونرى أنه لا مانع من أن تقول أنت الذي
فعلت هذا ، بدليل قول العرجي هنا (أأنت الذي خبرت) وقول ابن الدميني
وأنت التي أخلفتني ما وعدتني . وأسمت لي من كان فيك يلوم
وقول كثير :

وأنت التي حبيت شغبا إلى بدا إلى وأوطاني بلاد سواها

ولنرجع فنذكر اننا بحثنا طويلا عن شاعر سلك مسلك عمر
ابن أبي ربيعة في مخاطبة النساء فلم نجد من يقاربه غير بشار بن برد ،
الذي شهد آخر أيام بني أمية وصدر دولة بني العباس ، ففي شعر بشار
قرب من منهج ابن أبي ربيعة في محاور الغواني والتودد إلى الملاح ،
وفيه كذلك تأنيق في وصف الجوانب الحسية من المرأة المجدولة
الخلق ، المشرقة الجبين . وهو الذي يقول :

ويضاء يضحك ماء الشبا ب في وجهها لك إذ تبسم
رواء العذارى إذا زرنها أطفن بحوراء مثل الصنم
يرحن فيمسحن أركانها كما يمسح الحجر المستلهم
وفي هذا الشعر على يسره وسهولته نفحة من عبادة الجمال ، وهو
يذكرنا بقوله من كلمة ثانية

لقي بتسبيحة من حسن ما خلقت وتستغفر حشا الرأي بارعاد
كأنما صوّرت من ماء أولوة فكل جارحة وجه بمرصاد
وقوله من كلمة أخرى يتحدث فيها عن ليلة وصل :

ومرتجة الأرداف مهضومة الحشا تمر بسحر عينها وتدور
إذا نظرت صبت عليك صباة وكادت قلوب العالمين تطير
خلوت بها لا يخلص الماء بيننا إلى الصبح دوني حاجب وستوا

وذكر صاحب زهر الآداب أن بشاراً لما قال :
 لا يؤيسنك من مخبأة قول تغلظه وإن جرحا
 عُسر النساء إلى مياسرة والصعب يمكن بعد ما جمعا
 بلغ ذلك المهدي فغاضه ، وقال : يحرّض النساء على الفجور ،
 ويسهل السبيل إليه ! فقال له خاله يزيد بن منصور الحميري :
 يا أمير المؤمنين ، قد فتن النساء بشعره ، وأى امرأة لا تصبو إلى
 مثل قوله .

عجبت فطمة من نعتي لها

هل يُجيد النعت مكفوف البصر ؟
 بنت عشر وثلاث قسّمت بين غصن وكثيب وقر
 دُرّة بحرية مكنونة مازها التاجر من بين الدر
 أذرت الدمع وقالت ويلتي من ولوع الكف ركاب الخطر
 أمتي بدد هذا لُعي ووشاحي حله حتى انتثر
 فدعيني معه يا أمتي عائنا في خلوة نقضي الوطر
 أقبلت في خلوة تضربها واعتراها كجنون مُستعر
 بأبي والله ما أحسنه دمعُ عين غسل الكحل قطر
 أيها النّوام هبوا ويمكم وسلوني اليوم ما طعم السهر

فأمره المهدي أن لا يتغزل ، فقال أشعاراً في ذلك ، منها هذه التائية :

يا منظراً حسناً رأيته من وجه جارية فديته
لعمت إلى تسومني ثوب الشباب وقد طويته^(١)
والله رب محمد ما إن غدوت ولا نويته
أمسكت عنك وربما عرض البلاء وما ابتغيته
إن الخليفة قد أبى وإذا أبى شيئاً أبيتته
ويشوفى بيت الحيد ب إذا غدوت وأين بيتته
قام الخليفة دونه فصبرت عنه وما قليته
ونهاى الملك الهما م عن النساء فما عصيته
لا بل وفيت ولم أضع عهداً ولا رأياً رأيته

وفي الحق أننا نجد في القصيدة الأولى شبهاً قوياً بشعر عمر ابن
أبي ربيعة ، وإنه ليحاكيه حتى في التغزل بنفسه والتحدث عن أمره
لقلوب النساء . ولو بقي شعر بشار لاستطعنا التثبت مما نراه من التشابه
بين شعر هذين الشاعرين ، ولكن شعر بشار ضاع فلم يبق إلا الاعتماد
على تلك الشواهد الضئيلة في تأييد ما ذهبنا إليه ، وإن كنا على يقين
من أن لهذا الرأي حظاً من الصحة غير قليل

(١) لعمت الى : أشارت

والخلاصة أننا لا نجد شاعراً بعد عمر بن أبي ربيعة وقف حياته
وشعره على التشبيب بالنساء ، وإن كنا لا ننكر أن كثيراً من الشعراء
تحوا منحاه في القصص الغرامية ، وإن لم يعرفوا بذلك ، فأننا لا نشك
في أن الأبيوردي حاكاه حين قال :

تنور سناها من بعيد ولا ترع	فليس على من آانس النار من باس
ومن مؤقديها عادةً دونها الظبي	تلوح بأيدي غلغة غير أنكاس ^(١)
وكل رديني ^٢ كأف سنانه	يعط رداء الليل عنهم بنبراس ^(٣)
مهفهفه غرثي الوشاحين دونها	تحرش عذال ورقبة حراس
يضى لها وجه يرق أديمه	فما ضرّها لو رقّ لى قلبها القاسى
سموت لها والليل حارت نجومه	على أفق عارٍ بظل الدجى كاسى
فهبت كما ارتاع الغزال وأوجست	من ابن أبيها خيفةً أى إيجاس

تشير إلى مهورى حذار صهيله

وتستكتم الأرض الخطي خشية الناس

فقلت لها لا تفرقي وتشبى بنهاس أقران ومناع أخياس^(٣)

(١) الانكاس جمع سكس بالكسر وهو الضعيف (٢) الرديني : الرمح * نسبة الى
ردينة وهو رجل كان يشقف السلاح - يعط رداء الليل : يشقه . وقرىء (فلما رأى
قميصه عطر من دبر) أى قد - والنبراس المصباح (٣) النهس فى الاصل أخذ اللحم بمقدم
الاسنان - ومن أسماء الاسد النهاس - والاخياس جمع خيس بالكسر وهو موضع الاسد

(٢٨٤)

ترد يديه عن وشاحك عفة^(١) وعرض صقيل لا يُزن^(٢) بأدناس^(١)
وطوقتها يُمنى يدي^(٢) وصارمى يُسرأى فارتاحت قليلا لا يناسى
وذقت عفا عنا الآله وعنكم^(٣)

جنى ربيعة تاهى أخاكم عن الكأس^(٢)

فلما استطال الفجر مال بمطفئها وداعى كاهز الصبا قُضِب الآس
ويمكن الحكم بأن أبا نواس جارى ابن أبي ربيعة فى النسب ،
لولا أنه غير مجرى الحديث ، فنقله من النساء إلى الغلمان ، وجارى
أبا نواس فريق من شعراء الاندلس ، أشهرهم ابن خفاجة الذى يقول
فى وصف ليلة قضاها بين ضلال الهوى وجنون انصهباء

وليلَ تعاطينا المدام وبيننا حديث^(٢) كاهب^(٢) النسيم على الورد
نُعاوده والكأس يعبقُ نفعه^(٢) وأطيب منه ما نعيد وما نبدى
ونقلى أقاح الشجر أو سوسن الطلى ونرجسة الاجفان أو وردة الخلد^(٣)

إلى أنسرت فى جسمه الكأس والكرى

ومالا بمطفئيه فقال على عضدى

(١) لا يزن : لا يتهم (٢) تقبل الله دعاء الشاعر وعفا عنه وأنه نسيه محب

(٣) النقل بالفتح ما يتناول على مائدة الشراب

فأقبلت أستهدي لما بين أضلعي من الحر ما بين الضلوع من البرد
وعاينته قد سُـلِّ من وشى بُـردِه

فعاينت منه السيف سُـلِّ من الغمد

ليان مَجَسِّ واستقامة قامَةٍ وهزة أعطاف ورونق إفـرند
أغازل منه الغصن في مغرس النقا

والأثم وجه الشمس في مطلع السعد

فإن لم يكنها أو تكنه فانه أخوها كما قدَّ الشراك من الجلد
تسافر كلنا راحتيَّ بجسمه فطوراً إلى خصر وطوراً إلى نهـد
فتهيبط من كشعيه كفى تهامة وتصعد من نهديه أخرى إلى نجد

